E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

المرأة في فقه الإمام أبي زيد عبد الرحمن الثعالبي الجزائري

The woman in the thought of Imam Abu Zayd Abderrahmane at Thaalibi

د . عصام طوالبي الثعالبي

جامعة الجزائر 1

t.issam@live.fr

تاريخ الإيداع: **2019/01/24** تاريخ النشر: **2019/03/15**

الملخص :

لقد تواتر في التراث الشعبي الجزائري أن الشيخ عبد الرحمن الثعالبي كرّس حياته لتعليم النساء، والرفع من مكانتهنّ، والدفاع عن كرامتهنّ، حتى قيل أنه "كان يخصّص درس الصباح لألف من الذكور، ودرس المساء لألف من الإناث". فإن أقررنا بأن الرّواية الشعبية تحتمل قدرا من الحقيقة مهما كانت نسبية، هل يمكننا الافتراض بأن التصوّر الشعبي الذي يصف الثعالبي بمثابة "المدافع عن حقوق المرأة" يستند إلى بعض الحقائق العلمية؟ لنطرح الإشكالية بطريقة مغايرة: هل يوجد في مؤلفات الثعالبي ما يؤكّد هذه الفكرة، أو على الأقل يلهمنا بأن العلامة الجزائري قد تبنّى موقفا إيجابيا تجاه المرأة ؟ لا شك أن تحليل مؤلفات الثعالبي أفضل وسيلة لتحديد موقع المرأة في تصوّف الثعالبي (المبحث الأول)، وللكشف عن آرائه بخصوص عدد من المسائل الشرعية المتعلقة بفقه النساء (المبحث الثاني).

الكلمات الدالة:

الثعالبي ، الفقه ، التصوف ، الجزائر ، المرأة

Abstract:

The Algerian folk narrative reports that Sheikh Abderrahmane at-Thaâlibî dedicated her life to the education of women and the defense of their dignity, to the point that it is said that Sidi Abderrahmane "spent his mornings teaching a thousand boys, and his afternoons to a thousand girls. " Starting from the principle that the popular narrative contains a part of truth as relative as it may be, can we assume that the popular representation describing at-Thaâlibî as a "feminist" rests on some truth? Let us pose the problem differently: would there be in the works of at-Thaalibi what would confirm this idea, or at least indicate to us that the sheikh has adopted a positive position with regard to the woman? There is no doubt that the analysis of the work of at-Thaâlibî remains the best way to determine the place of the feminine in its mystique (chapter 1), and to lift the veil on its opinions on a number of legal questions relating to women (chapter 2).

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

Key Words :
At-Thaalibi ,Theology ,Sufism , Algiers , Women.

مشهور عند علماء وقته بلقب "حجة علم الحديث"، إن الشيخ عبد الرحمن الثعالبي الجزائري (786هـ/ 1384م - 875هـ/ 1471م) "ممن اتفق الناس على صلاحه وإمامته"[1]؛ فبينما وصفه إمام المحدثين ولي الدين العراقي (ت. 862هـ/ 1422م) "بالشيخ الصالح الفاضل الكامل المحرر"[2]، لقّبه الحافظ السخاوي (ت. 902هـ/ 1496م) "بالإمام العلاّمة المصنّف"[3]، ورأى فيه العلامة المحدث أبو الفيض الكتاني (ت. 1381هـ/ 1962م) "بركة الجزائر عالمها ومسندها"[4]. فقيهٌ، ومحدثٌ، ومفسرٌ، ومؤرخٌ، وصوفي، لقد أسس الثعالبي مدرسة شرعية مجمع على صدق منهجها؛ مدرسةٌ سعى في نشر أنوارها تلاميذه أشهرهم صهره علامة مدينة أدرار الشيخ عبد الكريم المغيلي (ت. 909هـ/ 1503م)، وفقيه باب الوادي عبد الله الزواوي (ت. 884هـ/ 1479م)، والشيخ أحمد زروق (ت. 899هـ/ 1493م)، وعالمي تلمسان محمد بن عبد الله السنوسي (ت. 895هـ/ 1489م) وابن مرزوق الكفيف (ت. 901هـ/ 1495م)، ومفتي بسكرة عيسى ابن سلامة (ت. 865هـ/ 1456م)، ومحمد بن عبد الله التنسي (899هـ/ 1494م). بل وامتد إشعاع الثعالبي خارج حدود وطنه حيث تتلمذ على يده عدد من العلماء غير الجزائيين كالفقيه المغاربي علي بن عياد بن أبي بكر البكري (ت. 893هـ/ 1487م) والمؤرخ المصري عبد الباسط الملطي (ت. 920هـ/ 1514م).

فلا خلاف بين المؤرخين أن مدرسة الثعالبي قد لعبت دورا أساسيا في النهضة العلمية لمدينة الجزائر؛ فبعدما كانت هذه الأخيرة عاجزة عن فرض نفسها علميا أمام تونس وتلمسان وفاس، إذ لم تكن "تتوّفر إلا على كتيبات لتعليم القرآن، وبعض المتون، وتحفيظ الأحاديث النبوية [...و] كانت فقيرة من الناحية الثقافية إلى حدّ"[5]، ها هي بعد تأسيس الثعالبي لمدرسته تستقبل من كل فج الوفود الراغبين في العلم والمعرفة، ليزداد عدد الطلبة المقيمين فيها يوما بعد يوم جاعلين من الجزائر، أو "مدينة سيدي عبد الرحمن" مدينة علمية بأتم معنى الكلمة. وقد أكّدت منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) على هذه الحقيقة التاريخية، حيث احتفلت سنة 2013م/ 1434هـ بالمئوية السادسة لتأسيس مدرسة الثعالبي تحت عنوان "قلب قصبة الجزائر ومركز إشعاع ثقافي في منطقة المغرب". وقد سببت منظمة الأمم المتحدة مبادرتها بالعبارات التالية: "كان لمدرسة الثعالبية تأثيرا أكيدا على عمران القصبة، بمعنى أن العديد من المثقفين والشرفاء وطلبة العلم الأجانب تمكنوا من الإقامة بها بسبب وجود هذه المدرسة"[6].

المنارة للاستشارات

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

يفسر ذلك تعلق أهالي الجزائر بشخصية الثعالبي، إذ "رفعوا مكانته بينهم قديما وحملوا في صدورهم حبّه وتقديره على مدى قرون من الزمن حتى أضحى رمزا لعاصمتهم"[7]. لكن الأمر المثير للاهتمام في ظاهرة تعلّق سكان العاصمة بشخصية الثعالبي أنها لم تقتصر على معاصريه من أهل العلم وتلاميذه الذين اجتهدوا في نقل تعاليمه والإشادة بمناقبه[8]. بل يبدو أن تأثير الثعالبي بلغ أيضا النساء، وربما أكثر من سواهنّ من الرجال! يكفينا اليوم ذكر اسم "سيدي عبد الرحمن" لدى نساء الأحياء الشعبية بالقصبة للتأكّد من المكانة الخاصة التي يحتلّها هذا العالم الجليل في قلوبهنّ: اعتياد زيارة ضريحه، مشاهدته في الرؤى، التبرك بذكره في الولائم، حفظ كراماته... إلخ. والغريب في الأمر أن شهرة الثعالبي لم تتوقف مع أخواته من المسلمات، بل وبلغ غيرهن من نساء أهل الكتاب! بالفعل، ينقل تاريخ العاصمة عددا من الشخصيات الغربية النصرانية اللواتي عبّرن عن تبجيل خاص للثعالبي؛ منهن الملكة البريطانية "فيكتوريا" (ت. 1318هـ/ 1901م) التي تبرّعت لمسجده بالثرية الموجودة وسط قاعة الصلاة، وملكة البرتغال "أميلي" (ت. 1370هـ 1951م) التي زارت ضريحه في منتصف القرن الماضي[9]، والكاتبة السويسرية "إيزابال إيبرهارت" التي كانت تصف زاوية الثعالبي بأنها "أجمل مكان في الجزائر لمن يبحث عن السكينة".

ألا يجب أن نتساءل عن سرّ هذه المكانة الرفيعة التي يحتلها الثعالبي في الذاكرة الجماعية الأنثوية؟ يقترح لنا التراث الشعبي الجزائري تفسيرا في غاية البساطة: يُحكى أن "سيدي عبد الرحمن كان يخصّص درس الصباح لألف من الذكور، ودرس المساء لألف من الإناث"؛ أو بعبارة أخرى: تواتر لدى أهالي العاصمة أن الثعالبي قد كرّس حياته لتعليم النساء، والرفع من مكانتهنّ، والدفاع عن كرامتهنّ؛ وعليه، كان من آثار "بركته"، كما قيل، أن يبوء مع مرور الزمن باحترام وتوقير الجنس اللطيف.

بالطبع، يبدو هذا التفسير طفيلياً على ضوء المنهج العلمي السليم ومتطلبات البحث الأكاديمي القويم. لكن إن أقرنا بالقاعدة الأنتروبولجية القائلة بأن الرّواية الشعبية تحمل قدرا من الحقيقة التاريخية، هل نستطيع الافتراض بأن هذا التصوّر الشعبي الذي يصف الثعالبي بمثابة "المدافع عن حقوق المرأة" يستند إلى بعض الحقائق العلمية مهما كانت نسبية؟ لنطرح الإشكالية بطريقة مغايرة: هل يوجد في مؤلفات الثعالبي ما يؤكّد هذه الفكرة، أو على الأقل يلهمنا بأن العلامة الجزائري قد تبنّى موقفا إيجابيا تجاه المرأة ؟

لا شك أن تحليل مؤلفات الثعالبي أفضل وسيلة للإجابة على هذا التساؤل. بالطبع، لن نتجرأ هنا بالإحاطة بكافة كتب هذا العالم الموسوعي الذي ترك تراثا علميا معتبرا[10]؛ بل ستقتصر

المنارة للاستشارات

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

دراستنا على تحليل كتاب *رياض الصالحين وتحفة المتقين*[11]، *والأنوار المضيئة الجامعة بين الحقيقة والشريعة*[12] *والعلوم الفاخرة في النظر في أحوال الآخرة*[13] لتحديد موقع المرأة في تصوّف الثعالبي (المبحث الأول). لنتطرّق بعدها إلى تحليل بعض مواضع تفسيره *الجواهر الحسان في تفسير القرآن*[14]، وكتاب *جامع الأمهات في أحكام العبادات*[15]، *والإرشاد لما فيه من مصالح العباد*[16]، للكشف عن آرائه بخصوص عدد من المسائل الشرعية المتعلقة بفقه النساء (المبحث الثاني).

المبحث الأول : المرأة في تصوّف الثعالبي

يتفق المؤرخون للقول بأن التصوف أخصب جانب من جوانب شخصية عبد الرحمن الثعالبي[17]. بالفعل، ألم يتخلّ وهو في ريعان شبابه عن منصب القضاء واعتزل الأغنياء والسلاطين، مستأثرا ارتداء الصوف ومجالسة الفقراء والمساكين[18]؟ فكان من الطبيعي أن تنعكس نزعته الصوفية في مؤلفاته: بغضّ النظر عن اغترافه المستمر من تعاليم المدرسة الغزالية التي نستشعر بخيوطها في كل صفحة من صفحاته[19]، تترادف في كتبه المراجع الصوفية، كـ*الرعاية لحقوق الله* للمحاسبي (ت. 243هـ/ 856م)، و*الرسالة في التصوف* للقشيري (ت. 459هـ/ 1073م)، و*التذكرة* للقرطبي (ت. 671هـ/ 1272م)، و*العاقبة* لعبد الحق الاشبيلي (ت. 631هـ/ 1233م)، و*الحزب الكبير* للشاذلي (ت. 656هـ/ 1258م) و*الحكم العطائية* لابن عطاء الله السكندري (ت. 707هـ/1307م)، و*التشوف لرجال التصوف* لأبي يحي التّادلي...إلخ. مشايخٌ يشهدُ لهم الثعالبي بتبجيل كبير حيث يصفهم بـ"أنجى النجاة، يقتفي آثارهم الحائر، فمن وصل حبله بحبلهم فقد استمسك بالعروة الوثقى، ومن انتظم في سلكهم فقد ارتفع وارتقى"[20].

لكن ما معنى التصوف عند الثعالبي؟ يبدو أن "قطب" مدينة الجزائر، وخلافا لما فعله مع علم الفقه حيث اعتنى - كما سنرى ذلك - بتعريف مدلوله وتحديد نطاقه، لم يقترح تعريفا جامعا للتصوّف. وعليه، يجب العودة إلى مؤلفات تلاميذه، بالأخص الشيخ أحمد زروق البرنسي (ت. 901هـ/ 1495م)، للكشف عن مفهوم التصوف عند أتباع "الثعالبية"؛ يقول الشيخ زروق بهذا الخصوص: "أصل التصوف مقام الإحسان الذي فسّره رسول الله (ص): **"بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك"** [...] كما دار *الفقه* على مقام *الإسلام*، *والأصول* على مقام *الإيمان*، فالتصوّف أحد أجزاء الدين الذي علّمه عليه السلام جبريل ليعلمه الصحابة رضي الله عنهم أجمعين [...] *فالتصوف* علم قصِد لإصلاح القلوب وإفرادها لله عمّا سواه، *كالفقه* لإصلاح العمل وحفظ النظام وظهور الحكمة بالأحكام، *وكالأصول* لتحقيق المعتقدات بالبرهان وتحلية الإيمان بالإيقان؛ وكالطب لحفظ الأبدان؛ وكالنحو لإصلاح اللسان... إلى غير ذلك، فافهم"[21].

المنارة للاستشارات

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

وعليه، يبدو التصوف على ضوء تعريف تلميذ الثعالبي علما من علوم الدين، إلى جانب غيره من العلوم كالفقه والعقيدة؛ علم رقيق نطاقه أحوال النفس ومكائدها ووسائل علاجها، وأسرار القلوب وتقلباتها وطرق تصفيتها؛ هدفه الوصول إلى معرفة الله، والفوز برضاه، والحصول على محبته. فتبقى محبة المولى الهدف الأسمى بالنسبة لسالك طريق الآخرة، كما ينشدُ الثعالبي في هذا المقام :

إلهي هب لي الأنس بالذكر دائما ولا تحرمني ذوق أهل المحبة
إلهي قد أدخلتني حضرة العلى وأسكنتني منها بأشرف قبة[...]
تلاشت لدي الكائنات بأسرها ولم ألتفتها راعيا شرط الغيرة[22]

وهل تعني الولاية سوى المحبة والنصرة ؟ من هنا تمحور التصوف حول مدلول الولاية وعلامتها الكرامة. لكن ما حظ المرأة من المقامين؟ هل يرى الثعالبي أن المرأة تستوي مع الرجل في بلوغ الولاية (المطلب الأول) وتحقيق الكرامة (المطلب الثاني) ؟

المطلب الأول: المرأة والولاية عند الثعالبي:

ما المراد بالولاية أو "الولي الصالح" عند الثعالبي؟ هل تبنّى المحدث الجزائري تعريف أهل الحديث للولي استنادا إلى ظواهر أفعال الامتثال والاجتناب، أم انحاز الزّاهد إلى مذهب مشايخ الصوفية المعتبر لباطن الأحوال والمشاهدات ؟ يبدو على ضوء استطلاع كتب إمام العاصمة أنه حاول، بصفته فقيها صاحب شريعة وصوفيا أهل حقيقة، التوفيق نوعا ما بين الظاهر العملي والباطن الوجداني للولاية. فنجده يعرّف الولّي في كتاب *"حقيقة التوحيد"* بأنه "العارف بالله تعالى وبرسوله عليه الصلاة والسلام، المواظب على الطاعة، المجتنب للمعاصي، المعرض عن الانهماك في الشهوات واللذات"[23]. لكن تأكيد "حجة علم الحديث" على المجاهدة كركن من أركان الولاية لم يمنعه من الاهتمام بالأحوال الباطنية والمواهب الربانية التي يُكرم بها الصالحون؛ يقول "القطب الصوفي" بخصوص هذه الحقيقة الوجدانية التي يُكرم بها الصالحون: "الحمد لله الذي سقا أولياء من خالص كأس محبته شرابا طهورا، وبعث من خزائن رحمته وعجائب غرائب ألطافه إلى قلوبهم هداية ونورا، هيّمهم بذكره وقطعهم عن غيره، فأضحى الكل بوجود فضله فرحا مسرورا، أخذهم منهم أفناهم به عنهم، فأرواحهم سرب وأشباح بذكره، اهتزّت شوقا إلى من لم يزل بعباده رءوفا غفورا"[24].

فإن كان الأولياء أصفياء الله، أحبّهم فتولّى أمرهم، وأورثهم العلم والحكمة، ما حظ النساء من هذه الولاية في رأي الثعالبي؟ هل تستطيع المرأة بلوغ مختلف المقامات الروحية؟ أيوجد في النساء

المنارة للاستشارات

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

ما يُعرف في مصطلح التصوف "بالنجباء" و"الأوتاد" و"الأقطاب" ؟يدعونا الثعالبي في تفسيره للقصص القرآني إلى تدبّر مقام امرأتين صالحتين: لوحا أم موسى ومريم بنت عمران؛ فبينما يرى المفسر في قوله تعالى **{وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه}** (طه: 7) أن هذه المرأة الصالحة تلقّت، مثل كبار العارفين من أهل الكشف، "وحي إلهام [...]علمت [بواسطته] أن هذا الذي وقع في نفسها هو من عند الله"[25]، لا يخفي إعجابه بتعبّد السيدة مريم عليها السلام وامتثالها لأمر المولى **{اقنتي لربك}** (آل عمران: 34): "لما خُوطبت بهذا قامت حتى سال الدم والقيح من قدميها، وروي أن الطّير كانت تنزل على رأسها تظنها جمادا !"[26]. ويذهب أبعد من ذلك في إشادته بمقام أم عيسى، حين يخبرنا بأنّ بعض أهل العلم قد استنبطوا من قول الملائكة:**{إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على العالمين}** "أن مريم نبيّة من أجل مخاطبة الملائكة لها"[27] !

لكن هل هذه الدرجات العالية والمقامات الساميّة خاصّة بنساء القصص القرآني أم تستطيع كل امرأة مؤمنة بلوغها ؟ يردّ الثعالبي على هذا التساؤل في تفسيره لقوله تعالى: **{فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض}** (آل عمران: 195) على النحو التالي: "الرجال والنساء في ذلك [الصلاح والولاية] على حد واحد [...]، أي شبه بعض أو مثل بعض؛ والمعنى أنّه لا تفاوت في الثواب بين الذكر والأنثى إذا استووا في الطاعة؛ وهذا يدلّ على أن الفضل في باب الدين إنّما هو بالأعمال لا بسرّ صفات العاملين لأن كونهم ذكرا أو أنثى"[28].

تتأكد هذه الفكرة بالنسبة للثعالبي بتعقيب الوحي على قول أم سلمة للنبي (ص): "يا رسول الله ! يذكر الله تعالى الرجال في كتابة في كل شيء ولا يذكرنا !" بنزول قوله تعالى: **{إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما}** *(الأحزاب: 35)*؛ يعلّق الثعالبي على الآية قائلا: "ألفاظ الآية في غاية البيان [...] وفي الحديث الصحيح عنه (ص) قال: **"سبق المفردون..."** قالوا: "وما المفردون يا رسول الله؟"، قال: **"الذّاكرون الله كثيرا والذاكرات"**[29].ليس بعد البيان بيان: إن تمكنت المرأة بنصوص الوحي من بلوغ *مقام التّفريد*، ذلك المقام الفريد "الذي لا يشاهد فيه السّالك أحد ولا يذكر أحد سوى الذي ظهرت منه الآحاد"[30]، فالنّساء والرجال في الولاية على حد السواء. هل الأمر كذلك بالنسبة للكرامة والتي تبقى، كما نعلم، من أبرز شهادة المولى على ولاية عبده ؟

المطلب الثاني: المرأة والكرامات عند الثعالبي:

المنارة للاستشارات

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

باستثناء المعتزلة الذين ينكرون خوارق العادة لتوقيفهم المعجزات على الأنبياء، لا خلاف بين أهل السنة والجماعة على ثبوت الكرامة. وقد أحسن الثعالبي في تلخيص الأدلة الشرعية التي استند إليها السلف للرد على منكري الكرامات منشدا:

لا تستغرب في كرامات يخص بها من اتقى الله في سرّ وإعلان
فأصغ سمعا لما يروى أئمّتنا عن من مضي من أولى الإقرار والشّأن
وأمر مريم يكفي المستدل به في شأن محرابها في آل عمران
وفتية الكهف في إيقاظهم عجب بعد الميت كما تبلوا الجسمان[31]

فمنكر الكرامة عند الثعالبي منكرٌ للإجماع، مخطئ قد أخطأ وخطّأ السلف وابتغى غير سبيل المؤمنين: "الحكايات كثيرة في هذا الباب [أي الكرامات]؛ وإيّاك أن تنكر شيئا من حكايات أولياء الله سبحانه فتجمع بين إفلاسك منها والتكذيب بها !"[32].

لكن في نفس الوقت، ومهما عظم شأن الكرامة بصفتها شهادة تدل على موالاة الله لعبده، إلا أنّ الثعالبي يحذر أشدّ التحذير العبد الذي بُشّر بها من السكون إليها أو التوقف معها في سيره إلى المولى حيث يضيف: "المشتغل بطاعة الله تعالى لا يكون قصده بالطاعة نيل الكرامة، بل يكون مخلصا في عبادته لخالقه لا يبتغي بها عوضا. ثم إن أكرمه الله سبحانه بكرامات أوليائه حمد الله سبحانه على ذلك لأنّها تدل على استقامته، فيرى المنة لله سبحانه، ويتبرّأ من رؤية نفسه، ومن حوله وقوته، ويحتقر نفسه، ويرى أنّها ليست بأهل للكرامة لولا تفضل المولى سبحانه عليها"[33]. فأعظم الكرامات وأجلّها في نظر الثعالبي "الاستقامة على مناهج الكتاب والسنة وما درج عليه سلف هذه الأمة [...]؛ اعلم أن من أجلّ الكرامات للأولياء دوام التوفيق للطاعات والعصمة من المعاصي والمخالفات"[34].لكن هل هذه الكرامة خاصة بالرجال أم يشترك فيها الجنسان الذكر والأنثى؟ هنا أيضا، وكما هو الحال بالنسبة للولاية، لم يجعل الثعالبي الكرامة حكرا على الرجال، بل خصّص للصالحات حظا وافرا من الكرامات المنقولة في كتابيه *رياض الصالحين والإرشاد لما فيه مصالح العباد*.

يخبرنا مثلا أن الأنطاكي وأبو علي البدوي وجدا يوما وسط بادية بيتا فيه عجوزا كبيرة ليس عندها شيء، وعند باب البيت جرّة صغيرة من حجر، فسلّما عليها وجلسا عندها حتى غربت الشمس. خرجت عندئذ من البيت بعد أن صلّت المغرب، معها رغيفان عليهما قطعة تمر، ثم قالت: "ادخلوا البيت فخذوا ما لكم فيه !" فدخلا فإذا هما بأربعة أرغفة وقطعتين من تمر، وما في ذلك الموضع نخل ولا تمر. فلمّا كان بعد ساعة جاءت قطعة سحاب فوقعت على الجرة حتى

المنارة للاستشارات

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

امتلأت ولم يسقط خارج الجرة نقطة واحدة. فقالا لها: "كم لك في هذا الموضع؟"، قالت: "سبعين سنة وهذه حالتي مع مولاي في قوتي وشرابي كما ترون؛ كلّ ليلة تجيء سحابة صيفا وشتاءا وهذان الرغيفان"، ثم قالت: "أين تقصدان؟" قالا: "إلى أبي نصر السمرقندي حتى نزوره"، قالت: "أبو نصر رجل صالح... يا أبا نصر تعال إلى القوم !" فإذا أبو نصر قائم عندنا، فسلّم علينا وسلّمنا عليه، ثم قالت: "إذا أطاع العبد مولاه أعطاه مناه"[35].

ينقل الثعالبي رواية أخرى لكرامة أثارت إعجابه من إحدى المتعبّدات: وجدتُ في بعض الكتب ما نصّه: سئُل بعض الصالحين عن سبب توبته فقال: كنت نبّاشا، فتوفّيت امرأة فصلّى الناس عليها، وصلّيتُ معهم لكي أعرف قبرها، فلما جنّ اللّيل نبشت قبرها فقالت: "سبحان الله ! رجل مغفور له يأخذ كفن امرأة مغفور لها !"، فقلت: "هب أنك مغفور لك، وأنا من أين يغفر لي؟"، فقالت: "إن الله سبحانه غفر لي ولجميع من صلّى عليّ، وأنت قد صلّيت عليّ"، فتركتها ورددتُ التراب عليها فكان سبب توبتيّ"[36].

نجد في كتاب *رياض الصالحين* شهادة أخرى للثعالبي حصلت له إثر إقامته في تونس. يقول الإمام: "لمّا دخل النصارى تونس في يوم الاثنين الثاني عشر من ذي الحجة من آخر عام من القرن الثامن كنتُ حاضرا، دخلها النصاري ضحوة فبقوا فيها يخربون ما أمكنهم يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء إلى الزوال أو قرب الزوال، فهزمهم الله سبحانه وقتل رئيسهم أو بعض رؤسائهم مع بعض أصحابه، وخلت المدينة منهم، ودخلها المسلمون فأخبرني الشيخ عيسى اللواتي قال: كنت في جماعة فمشينا في أزقتها في الليل فرأينا خباءا واقفا فتبادرنا إليه رجاء أن يكون النّصارى تركوه وقت الهزيمة، قال: فلما قربنا منه تباعد منّا فجئنا إلى المحل الذي رأيناه فيه أولا، فإذا نحن بامرأة من الشهداء مقتولة في جملة من قتلة النصارى، قال: فانصرفنا عنها فرجع الخباء إليها وخيم عليها وسترها، فلمّا كان النّهار لم نجد على المرأة خباءا وإنما عليها غزل الصوف معسورة به، وهذه أمنة منه سبحانه لهذه الشهيدة وكذا عادته سبحانه مع من انقطع إليه يتولى سبحانه أمره ولا يكله إلى غيره"[37].

نظن أن في هذا القدر من الأمثلة كفاية لتثبت تسوية الثعالبي بين الرجل والمرأة في بلوغ مقام الولاية وظهور فضل الكرامة. فيبدو جليّا أن الشيخ أبي زيد لم يفرّق بين المرأة والرجل في مجال العبادة، وسلوك طريق الأخيرة. هل يفترض أنه انتهج نفس المسلك المتفتح بالنسبة لأحكام الفقه؟

المبحث الثاني: المرأة في فقـــــه الثعالبي

المنارة للاستشارات

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

متأثر بالنزعة الغزالية السائدة لدى المغاربة، يقوم سلوك طريق الآخرة عند الثعالبي على أساس الجمع بين أحكام الإسلام ودقائق الإيمان، أو أعمال الجوارح وأحوال القلوب؛ الظاهر مجاهدة وامتثال لأحكام الشريعة، والباطن مشاهدة وسير في مقامات اليقين أو الحقيقة. من هذا المنظور القائم على مبدأ "لا إسلام لمن لا إيمان له ولا إيمان لمن لا إسلام له"، أو "لا ظاهر لمن لا باطن له ولا باطن لمن لا ظاهر له"، لا تبدو الشريعة مجرّد أحكام جامدة مفروضة على البرية، بل نعمة ورحمة ربانية؛ فهي المنهاج القويم الذي يجعل سالكه، بعد تطهير قلبه وجوارحه، أهلا لتذوق الحضرة الإلهية والاستغراق في أنوارها؛ "الشريعة - يقول الثعالبي - لغة مورد المياه، وهي في الدين من ذلك لأنّ الناس يردون الدين ابتغاء رحمة الله والتقرب منه"[38]. فالشريعة عند الشيخ أبي زيد أساس الدين، بل ويعتبرها أحيانا من مرادفاته حين يصرّح مثلا في بعض مواقع تفسيره: "الدين هنا الشريعة". وهي أيضا "الروح" الوارد في قوله تعالى: **{أوحينا إليك روحا من أمرنا}** (الشورى: 52) حيث يضيف: "الروح في هذه الآية القرآن وهدي الشريعة؛ سماه روحا من حيث يحي به البشر والعالم كما يحي الجسد بالروح "[39].

فالشريعة السمحاء رحمة؛ "لا يتقرّر من تكاليفها شيء لا يطاق"[40] يقول الثعالبي. وهي في الوقت نفسه "الوسيلة" التي توصل العبد إلى ذات الرحمة: المحبة الإلهية؛ **{قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يُحببكم الله ويغفر لكم}** (آل عمران: 31). يفسّر إمام الجزائر "الإتباع" الوارد في الآية على النحو التالي: "اتبعوه لفظ عام يدخل تحته جميع التزامات الشريعة؛ جعلنا الله من متبعيه على ما يلزم بمنه ورحمته ! فإن أردت الفوز أيها الأخ فعليك بإتباع النبي (ص) وتعظيم شريعته وتعظيم جميع أسبابه[41] ! [...] فينبغي للعاقل أن يتأدّب بآداب الشريعة وأن يحسن العشرة مع عباد الله"[42].

رغم تأكيده باستمرار على مبدأ "مرونة الشريعة"، يبقى الثعالبي في كل حال منحازا لمذهب أهل الحديث، خاصّة في مسائل العقيدة ؛ فهو يرفض مثلا الأخذ بالرأي في مسألة التحسين والتقبيح، ويردّ بعنف على قول المعتزلة فيها؛ فالحسن ما حسنة الشرع والعقل تابع، والقبيح ما قبحه الشرع والعقل تابع: "الشرع هو الذي يحسّن ويقبّح؛ فكل ما نهت عنه الشريعة فهو من الفحشاء[43] [...] وزينة الله هي ما حسّنته الشريعة وقرّرته"[44]. وقد أحسن الدكتور عبد الرزاق دحمون في التعليق على هذه الحكمة: "يرى [الثعالبي] أن الحسن والقبح شرعيان، فالعقل عنده لا يوجب ولا يكلّف، وإنما هو الشرع، ولا يستحق العبد العقاب إلا بترك ما كُلّف"[45].

فيبدو في أول مهلة أن الثعالبي قد تبنّى نفس المنهاج الأصولي تجاه المسائل الفقهية المتعلقة بالمرأة. فهو يرى مثلا، على غرار جمهور السلف، أن المرأة من "زينة الدنيا" أو "فتنة"

المنارة للاستشارات

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

من فتنها: "لا تهتم بالدنيا وأهلها ! فإن أمرها وأمرهم أقل لفناء ذلك وذهابه [...] ما على الأرض زينة وامتحانا واختبارا [...] فاتقوا الدنيا واتقوا النساء !"[46]. كما يدعو الثعالبي بإلحاح المرأة إلى الحشمة والسترة والتحجّب: "أمر تعالى بأن لا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها [...] فالمرأة مأمورة بأن لا تبدي وأن تجتهد في الإخفاء لكلّ ما هو زينة، ووقع الاستثناء في كل ما غلبها فظهر بحكم ضرورة حركة فيما لابد منه أو إصلاح شأن، فما ظهر على هذا الوجه فهو المعفو عنه"[47].فإن تبنّى الفقيه الثعالبي هذا الموقف المحافظ تجاه المرأة، هل يعني ذلك أنه لا ينظر إليها إلا بصفة كائن يجب حجبه في كنف البيئة العائلية وعزله عن واقع الحياة الاجتماعية ؟ هل يقول مثلا، على غرار بعض المفسّرين، بأفضلية الرجل على المرأة ؟ سنحاول الإجابة على هذا التساؤل من خلال تحليل فقه الثعالبي المتعلق بالحقوق الزوجية (المطلب الأول)، ثم تقدير رأيه حول مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية (المطلب الثاني).

المطلب الأول: المرأة في البيئة العائلية

لقد منح الثعالبي على غرار غيره من الفقهاء، خاصة منهم أبي حامد الغزالي، عناية خاصة للزواج. فهو يؤكّد على ضرورة التمييز بين النكاح بهدف قضاء الشهوة فحسب، والزواج المصبوغ بنية المحبة الصادقة في الله ونيل إلى مرضاته ومرضاة نبيه حيث يقول: "نهى رسول الله (ص) عن التزوج لمعنى الذوق وقضاء الشهوة، وأمر بالتزوج طلبا للعصمة والتماس ثواب الله وقصد دوام الصحبة"[48].

فإن كان إنجاب الذرية الصالحة من أهم أهداف الزواج في سبيل الله، يسوّي الثعالبي في شأن الولد بين الذكر والأنثى؛ بل يذهب أبعد من ذلك حيث يعتبر إنجاب البنات أفضل من إنجاب الأولاد، ويرى الأم الودود الولود للأنثى خيرا من الولود للذكر ! يقول في هذا السياق عند تفسيره لقوله تعالى: **{فيهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الأولاد الذكور}** (الشورى: 49): "وبدأ في هذه الآية بذكر الإناث تأنيسا بهن ليهتمّ بصونهن والإحسان إليهنّ؛ وقال النبي(ص): **"من ابتلى من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له حجابا من النار"**[49]؛ وقال واثلة بن الأسقع: من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر، لأن الله تعالى بدأ بذكر الإناث"[50]. فها هو الثعالبي المفسّر، بعد توبيخه وذمّه ذلك الأب الذي "يخفي وجده وهمّه [إذا بُشّر] بالأنثى"[51]، يذكّر المسلم بأن إنجاب الإناث من سنة الأنبياء والمرسلين بقوله: "نزلت هذه الآية (الشورى: 49) في الأنبياء ثم عمّت؛ **{فيهب لمن يشاء إناثا}** يعني لوطا عليه السلام"[52].يبدو على ضوء ما سبق أن الثعالبي يدبّ نوعا ما عن الإناث تجاه إجحاف الآباء الذين يفضلون غالبا الذكور؛ هل نستطيع أن نفترض أنه انتهج نفس المسعى بالنسبة للمرأة في علاقتها بالزوج ؟

المنارة للاستشارات

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

من الطبيعي أننا نجد الثعالبي، كغيره من فقهاء الإسلام، يسلّم بمبدأ قوامة الرجل على المرأة؛ فهو يفسّر قوله تعالى: **{الرجال قوامون على النساء}** (النساء: 34) كما يلي: "قوامون بناء مبالغة، وهو من القيام على الشيء والاستبداد بالنظر فيه وحفظه؛ فقيام الرجال على النساء هو على هذا الحد"[53]. لكن الثعالبي لا يستند في شيء إلى هذه الآية – كما فعل ذلك بعض المفسرين أمثال ابن كثير (ت.773هـ/ 1372م) – للقول بأن "الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة"[54]. ليست القوامة عند الثعالبي تشريفا بل تكليفا؛ فهي تشير إلى مجموعة الواجبات التي يتسنّى على الزوج الوفاء بها تجاه زوجته: "فعليه أن يبذل المهر، والنفقة، وحسن العشرة، ويحجبها، ويأمرها بطاعة الله تعالى، وينهي إليها شعائر الإسلام من صلاة وصيام وما وجب على المسلمين"[55].

في المقابل، يُلخّص الثعالبي واجبات الزوجة تجاه زوجها على النحو الآتي: "وعليها الحفظ لماله، والإحسان إلى أهله، والالتزام لأمره في الحجبة وغيرها إلا بإذنه، وقبول قوله في الطاعات"[56]. فطاعة لزوجة لزوجها لا تشير هنا إلى العمل بأوامره مهما كانت كما يظن ذلك أكثر الناس، بل العمل بأوامر الله التي يذكرها بها زوجها أو ما هو من باب المعروف؛ فالنساء "القانتات" عند الثعالبي هنّ "المطيعات لأزواجهن، أو [الأصح] لله في أزواجهن"[57].

فالعلاقة الزوجية عند الثعالبي حقوق وواجبات متبادلة تعمّها الآية: **{ولهن مثل الذي عليهن}** (البقرة: 228). أمّا قوله تعالى: **{وللرجال عليهن درجة}**، فهو يشير عند إمام المسجد الكبير تارة إلى "فضل القوامية"، وتارة أخرى إلى "فضل حظّه على حظها في الميراث وما أشبهه"[58]؛ لكنه لا يستنبط أبدا من الآية فكرة أفضلية جنس الذكر على الأنثى. بل يستدل بقوله تعالى: **{خيركم عند الله أتقاكم}** (الحجرات: 13) ليضيف: "أنتم سواء من حيث أنتم مخلوقون [...] وأما الشّرف والكرم فهو بتقوى الله تعالى وسلامة القلوب"[59] ! فإن شاء الزوج أن يبلغ "درجة الفضل"، عليه أن يعمل بمقتضياتها، والتي تتمثّل على حد تعبير الإمام في "حسن العشرة، والتوسّع للنساء في المال والخلق؛ الأفضل ينبغي أن يتحامل على نفسه!"[60].

يحذر الشيخ الثعالبي من جهة أخرى الأزواج أشدّ التّحذير من ظلم النساء أو الإجحاف في حقّهن. يقول مثلا في تفسيره للآية: **{ولا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا}** (النساء: 4): "هذا نهي عن ظلمهنّ، وحسن هنا الاتّصاف بالعلوّ والكبر؛ أي قدره سبحانه فوق كل قدر، ويده بالقدرة فوق كل يد، فلا يستعلي أحد بالظلم على امرأته فالله تعالى بالمرصاد ! وينظر إلى هذا حديث أبي مسعود قال: "كنت أضرب غلامي فسمعت قائلا يقول: **"اعلم أبا مسعود ! أعلم أبا**

المنارة للاستشارات

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

مسعود !"، فصرفت وجهي فإذا رسول الله (ص) يقول: "**أعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا العبد !**"[61].

من هنا يرى الفقيه الجزائري أنه يتسنّى على المؤمن التزوّد بالحلم والصبر تجاه أذى الزوجة. وقد أشار بلطف إلى هذه الفكرة في كتابه *رياض الصالحين وتحفة المتقين*، حيث أورد قصة رجل صالح ذهب يوما إلى ولي من الأولياء يسمع به فسار إليه مسيرة أشهر؛ فدخل ليلا البلد الذي كان فيه الولي المذكور، فنزل إلى علو من الدار التي كان يسكن فيها. لكنه سمع وسط الليل كلام زوجة الولي حين أتته بطعام قائلة: "خذ يا هذا المرائي ! فو الله لو علم الناس منك ما أعلم لجموك بالحجارة !" فلمّا سمع الرّجل كلامها تغيّر ظنه فهمّ بالانصراف دون أن يراه. لكن لما كان الغد، اتبع الشيخ إلى الغابة التي يحتطب فيها؛ فوجده ما بين الشجر والأسد يكسر له الحطب، والشيخ يجمعه ويربطه بالحبل ويجعله على ظهر الأسد؛ فبادر الرجل إلى الشيخ فقبّل يده وقال له: "يا سيدي، بم نلت هذا المقام؟" فأجابه: "يا سيدي، بصبري على ما سمعت البارحة !" يضيف الثعالبي في ختام هذه القصة متبنّيا قول موسى المروي: "فو الله لا أبالي بعدها بما فعلت بي الزوجة ولو نتفت لحيني ما أنكرت عليها !"[62].

يا له من حلم من لدن فقيه من فقهاء القرن الثامن للهجرة / الخامس عشر للميلاد ! هل تبنّى الثعالبي هذا الموقف "المتفتح" تجاه مسألة مشاركة المرأة المسلمة في حياة المجتمع الإسلامي؟

المطلب الثاني: المرأة في البيئة الاجتماعية:

لا ينكر أحد من المؤرخين، ولو كان من أشداء أعداء الإسلام، ما أتت به الرسالة المحمدية في سبيل الرفع من شأن المرأة. فها هي الشريعة الإسلامية في الزمن الذي كانت فيه تُدفن الفتاة حية، تشجّع المرأة على طلب العلم والتفقّه في الدين، حتى غدت تُستفتى في المسائل الشرعية من طرف كبار العلماء؛ حسبنا من ذلك شهادة أبي موسى الأشعري (ت. 51هـ/ 672م) في حق السيدة عائشة (ض) الفقيهة الراسخة في علم الأنساب والشعر والطب والتنجيم :"ما أشكل علينا أصحاب محمد حديث قَطُّ، فسألنا عنه عائشة رضي الله عنها إلا وجدنا عندها منه علمًا"[7]؟ بغضّ النظر عن مئات – بل ألوف – النّسوة العابدات العالمات التي تعجّ بذكر مناقبهنّ كتب الطبقات أمثال رابعة العدوية (ت. 184هـ/ 801م) وفاطمة النيسابورة (ت. 144هـ/ 762م)؛ ودون أن نتكلّم عن الدور الجوهري الذي لعبته المرأة في حفظ ذاكرة الإسلام ورفع لواء حضارته، من خلال تدوين ووقف المصاحف، وبناء المساجد والزوايا، ونقل ورواية الحديث، على غرار مولاة أبي أيوب (295 هـ/ 907م) التي خطّت المصحف بجامع القيـروان ليبقى وقفا على القرّاء[63]،

المنارة للاستشارات

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

وفاطمة بنت محمد الفهري (ت. 266هـ/ 878م) مؤسسة جامع القرويين، والسيدّة كريمة بنت أحمد المروزية التي "انتهى إليها علو إسناد الحديث"[64]. ففي ذلك "الوقت الذي مُنعت فيه المرأة من مزاولة دروسها والتحاقها بالمعاهد والجامعات في الغرب، لعبت المرأة المسلمة أدوارا سجلت بخيوط ذهبية عبر التاريخ"[65]. للأسف، بدأت المرأة المسلمة تُعزل من حقل العلم والمعرفة ابتداء من القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد لجملة من العوامل الاجتماعية والثقافية، أهمّها كثرة الحروب والفتن، وتفضيل الأمومة، وفتاوى مجحفة تعتمد على أحاديث ضعيفة مثل "**لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن المغزل وسورة النور**"[66].

مهما قيل في الأسباب التي دفعت بالرجال إلى إبعاد المرأة عن المجتمع في بلد الإسلام، حتى بلغ بهم الأمر إلى منعها من كل وظيفة دينية أو اجتماعية[67]، لا يسعنا سوى أن نتساءل عن موقف الإمام الثعالبي في المسألة؟ هل تبنى رأي الدّعاة إلى إبعاد المرأة عن البيئة الاجتماعية، أم عكس ذلك سعى في تشجيع مساهمتها في حقل العلم والمعرفة ؟

أول ما يثير انتباهنا عند تصفح كتاب *الجواهر الحسان*، تأكيد المفسّر الجزائري أكثر من مرّة على الدور الجوهري الذي لعبته نساء المهاجرين والأنصار في مجيء الوحي، حيث كنّ في أكثر من مناسبة سببا من أسباب النزول؛ سواء تعلق الأمر بقوله تعالى: **{إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات...}** (الأحزاب:35)، أو **{فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى}** (آل عمران: 195)؛ أو **{لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا}** (النور: 27)، كل هذه الآيات، يذكّرنا الثعالبي، نزلت بسبب سؤال وجّهته امرأة إلى رسول الله (ص).

لا يقتصر دور المسلمات الأوائل عند الثعالبي في كونهنّ سببا لنزول عدد من الآيات؛ بل ساهمن أيضا بطريقة فعّالة في تفسيرها، ورفع اللثام عما اشتبه منها؛ كذلك يحتجّ المفسّر مثلا بتأويل حفصة **{للصلاة الوسطى}** (البقرة: 238) بصلاة العصر. أكثر من ذلك: يرى الثعالبي أنّه النساء ساهمن في صدر الإسلام مثل الرجل في تعلّم آيات القرآن وتعليمها، والعمل بأحكامه وتبليغها، وكأنه يدعو بالتالي امرأة زمانه للاقتداء بسيرتهم ؛ يقول في تفسير لقوله تعالى: **{واذكرن ما يتلى}** (الأحزاب: 34): "يحتمل أن يراد *باذكرن* إفشاؤه ونشره للناس [...] أمر الله أزواج رسوله أن يخبرن بما ينزل من القرءان في بيوتهن، وبما يرين من أفعال النبي (ص) وأقواله، حتى يبلغ ذلك إلى الناس فيعملوا بما فيه ويقتدوا به"[68].

تطرّق الثعالبي لمسألة فقهية تظهر أكثر رأيه حول مساهمة المرأة في الحياة العامة: شهود صلوات الجماعة وحلقات الذكر. وإن كان الشيخ الجزائري، كغيره من فقهاء المالكية، لا يشدّد في وجوب صلاة الجماعة، بل يعتبرها مجرّد سنة مؤكدة يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها[69]،

المنارة للاستشارات

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

إلا أنّه لم يغفل عن فضائلها : فهي أفضل الوسائل لجمع قلوب المؤمنين على محبة الله ومحبّة رسوله (ص). كذلك الأمر بالنسبة لمجالس العلم وحلقات الذكر: "**لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفّتهم الملائكة وغشيتهم الرّحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده**"[70]؛ يفتتح الثعالبي بالحديث القدسي كتابه *رياض الصالحين*. لكن ما حظّ النساء من هذه المجالس؟ أيجوز لهنّ حضور حلقات الذكر إلى جانب الرجال؟ لا يرى المفسّر الجزائري في المسألة محلّا للخلاف: شأن المرأة في الجماعة شأن الرجل؛ ألم يُوجّه أمر الجماعة أول ما نزل إلى امرأة، السيدة مريم: **{واركعي مع الراكعين}** (آل عمران: 43)؟

يستنبط الثعالبي من قوله تعالى: **{فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل}** (آل عمران: 61) سببا آخر لدعوة المسلمات لحضور الجماعة: "دعاء النساء والأبناء أهز للنّفوس، وأدعى لرحمة الله للمحقين، أو لغضبه على المبطلين"[71].

المثير بالاهتمام في ترخيص الثعالبي للنساء بحضور صلاة الجماعة ومجالس الذكر، أنه لم يقيّد ذلك بوجوب عزلهن عن الرجال بحائط أو جدار أو ستار أو شبّاك كما هو معمول به اليوم في مساجدنا؛ فالسنة في عهد النبي (ص) أن تصلّي النساء مباشرة خلف الرجال[72]؛ ويبدو أن العرف بخصوص حلقات الذكر بقي لدى المغاربة كما كان زمن النبوة؛ نستدلّ على ذلك بالنصّ التالي الذي نقله الثعالبي عن الشيخ يوسف بن يحي التّادلي: "توجّهت من مراكش إلى رباط شاكر في شهر رمضان عام ثلاثة وستمائة مع جماعة من الفضلاء، فأقمنا به إلى ليلة سبع وعشرين فقمنا في الثلث الآخر من الليل فأسرينا فرارا من شدة الحر بالنهار، فأتبعنا جمع *كثير من الرّجال والنساء*، فرغّبْنا أبا بكر المريد أن ينشدنا وكان حسن الإنشاد طيّب الصوت، فمازال ينشدنا ونحن نسير"[73].

لا شك أن تسامح الثعالبي مع المرأة لم يتوقّف مع إباحته لها بحضور مجالس الذكر والسّماع. فقد تبنّى هذا الموقف المتفتّح تجاه مسألة أكثر دقة: اشتراط المحرم للسفر. رغم إقراره بأنه "لا يحلّ للمرأة السفر إلا مع زوج أو ذي محرم منها"، يرخّص في حالة انعدامه تعويضه "بنساء مؤمنات مأمونات، أو رجال مأمونون لا تخشى على نفسها معهم"[74]. وفي هذه المسألة بالذات، أي وجوب المحرم للسفر، يفاجئنا الإمام الجزائري باجتهاد غير متوقّع: التمييز بين المرأة الصالحة العالمة الفقيهة وغيرها من عوام النساء. فقد ذكر في كتابه *رياض الصالحين* أن الأنطاكي ومحمد العابد لقيا يوما في جوار بيت المقدس امرأة عليها جبّة من شعر وعلى رأسها خمار من صوف وفي يدها عصا، فسلما عليها فردّت عليهما السلام؛ وبعد كلام قالا لها: "إنّا نراك امرأة حكيمة، إلا أنا نرى فيك زلّة"، قالت: "وما هي؟"، قالا: "امرأة تسافر من غير ذي محرم"، فقالت:

المنارة للاستشارات

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

{إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين} (الأعراف: 196)؛ فضرب محمد العابد إلى كسائه وكانت له فيه دراهم، فأخرج منها فدفع إليها فقالت له: "من أين لك هذه الدراهم، فإن الكسب جيّد للضعيف"، قال: "وما ضعفي؟": قالت: "ضعف اليقين!"، ثم أخذت كفا من حصى وقالت: "خذ يا ضعيف اليقين!"، فإذا هي جواهر، ثم قالت - والثعالبي يرجّح قولها -: "إذا بلغت المرأة هذه المنزلة جاز لها أن تسافر من غير ذي محرم"[75]. وإن كانت هذه الرواية مجرد قصّة أوردها الثعالبي على سبيل الاستئناس بكرامات الأولياء، لا يُعوّل عليها لاستنباط حكم شرعي، إلا أنها تؤكد مرة أخرى تسامحه تجاه المرأة.

* * *

باعتبار ما رأيناه من موقف الثعالبي من المساواة بين الرجل والمرأة أمام الخالق، ودبّه عن البنات، وتحذيره من ظلم الزوجات، وترخيصه للنساء بشهادة الصلوات، وإذنه للمؤمنات بحضور الحلقات، نستطيع القول أن سيدي عبد الرحمن قد تبنّى موقفا متسامحا للغاية تجاه المرأة، وكأنّه يشجّعها بطريقة غير مباشرة على استرجاع مكانتها في المجتمع الإسلامي عامّة، والحقل العلمي خاصّة. يبدو أن إمام العاصمة قد تفطّن مبّكرا، على صورة الفقيه الأندلسي أبي الوليد ابن رشد (ت. 595هـ/ 1198م)، لخطورة عزل المرأة عن الحياة العلميّة؛ بالفعل، ألم ينكر قاضي قضاة قرطبة منذ ما يقارب تسع قرون تدهور وضعية النساء في بلد الإسلام قائلا: "إنما زالت كفاية النساء في هذه المدن لأنهنّ اتخذن للنّسل دون غيره، وللقيام بأزواجهن، وكذا للإنجاب والرّضاعة والتربية، فكان ذلك مبطلا لأفعالهن [...] ولكونهنّ حملا ثقيلا على الرجال، صرن سببا من أسباب فقر هذه المدن"[76] ؟ !

حين نعلم قرب عهد الإمام الثعالبي بالفقيه الأندلسي المتوفى بمراكش سنة 595هـ/ 1198م، هل يمكننا الافتراض بأن "حجة علم الحديث" قد تأثّر بموقف الرشدية الإصلاحية تجاه المرأة؟ وإن كان جمهور الباحثين، بما فيهم الدكتور عبد الرزاق قسوم (1398هـ/ 1978م)، يستبعدون اقتداء الثعالبي بابن رشد في مجال الألوهيات والفلسفة الوجودية[77]، إلا أن ذلك لا يعني عدم تأثّر إمام الجزائر بقاضي قضاة قرطبة في مسائل الفقه. فبغضّ النّظر عن انتماء الرجلين لنفس المذهب الفقهي، مذهب الإمام مالك، نجد لدى الإمام الثعالبي بعض الإشارات الشّاهدة على توقير خاص - بل وتعلّق عميق - بشخصية ابن رشد. فكما عبّر الثعالبي لتبجيله "لحجة الإسلام" أبي حامد الغزالي باقتباس عناوين كتبه *الجواهر الحسان في تفسير القرآن*، *والعلوم الفاخرة في النظر في أحوال الآخرة*، من كتبي الفقيه الشافعي *جوهر القرآن* و*الدرّ الفاخرة في كشف علوم الآخرة*، يبدو أنه انتهج نفس المسلك مع "المعلّم الثاني" ابن رشد : ألا

المنارة للاستشارات

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

يذكّرنا كتاب *الأنوار المضيئة الجامعة بين الشريعة والحقيقة* بأشهر كتب الفيلسوف الأندلسي *فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال*؟ يتجلّى ميل الثعالبي لفكر ابن رشد أيضا من خلال احتجاجه في أكثر من موقع بأقوال قاضي قضاة قرطبة؛ فعلى صورة الإمام الغزالي الذي ورد ذكره في كتاب *الجواهر الحسان* أكثر من أربعين مرة، لقد تكرّر اسم ابن رشد في نفس الكتاب ما يُقارب عشرين مرة، وحتّى في مواضع الخلاف، نجد الثعالبي، بصفة شعورية أو لا شعورية، يرجح كلّما أمكن الفقيه الأندلسي بعبارة "وما قاله ابن رشد هو الصواب والله أعلم"[78].

فإن أقرنا أن الثعالبي قد تأثر بعدد من أفكار ابن رشد الفقهية، هل يُفترض أن العلامة الجزائري قد تبنّى بعض انفرادات القاضي الأندلسي بخصوص فقه المرأة؟ فنعلم مثلا أن ابن رشد قد خالف في بعض ترجيحاته الواردة في كتاب *بداية المجتهد ونهاية المقتصد* العديد من آراء المالكية التي يعتبرها مجحفة في حق المرأة، كرفضه لقول مالك بحجز أموال المرأة "في ولاية أبيها حتى تتزوج، ويدخل بها زوجها، ويؤنس رشدها حتى يمر بها سنة بعد دخول زوجها بها" مفضلا قول الأحناف بـ"أن حكمهن حكم الذكور: أعني بلوغ المحيض وإيناس الرشد"[79]، أو تردّده في مسألة قضاء المرأة بين قول أبي حنيفة بجواز قضاء المرأة في الأموال، ورأي الطبري بجواز حكمها على الإطلاق في كل شيء[80]. لا شك أن المسألة التي انفرد بها ابن رشد أكثر من سواها في فقه المرأة تبقى قضية إمامة المرأة؛ فخلافا لإجماع أهل السنّة الذي على كون الذكورة شرطا من شروط الإمامة العظمى، يبدو أن ابن رشد قد أخذ برأي الشيبيبة القائل بجواز رئاسة المرأة؛ فاستنادا إلى مبدأ "كل من يتأنى منه الفصل بين الناس فحكمه جائز"، يفصل ابن رشد في المسألة قائلا: "[باعتبار] ما جبلت عليه بعض النساء من الذكاء وحسن الاستعداد، فلا يُمتنع أن يكون لذلك بينهن حكيمات أو صاحبات رئاسة [...] وقد تبيّن ذلك بالفحص في الحيوان [...] ونرى هذا في أنثى الكلاب، فهي تحمي ما تحميه الذكور منها وتصارع ما تصارع ذكورها"[81].

لا يسعنا هنا إلا أن نتساءل هل بلغ تعلّق الثعالبي بأفكار ابن رشد ما يجعله يتبنّى مواقفه بخصوص فقه المرأة عامة، ومسألة إمكانية توليها الرئاسة خاصة؟ لا ندري. إذ وخلافا لابن رشد الذي جمع ترجيحاته الفقهية في كتاب *بداية المجتهد*، لم يخلّف الإمام الجزائري إلا مدونة فقهية واحدة في فقه العبادات (*الجامع لأحكام العبادات*)، وما سواها من الكتب أغلبها، كما نعلم، في الوعظ والرقائق. فمن الصّعب للغاية الاطلاع على آراء الثعالبي الفقهية عامة وفي فقه النساء خاصة. من هنا، لا يسعنا سوى تشجيع باحثينا، خاصة المهتمين منهم بدراسة كتبه الفقهية، على تعميق البحث في اجتهاداته في مواضيع فقه النساء، في زمن كثر فيه الجدال حول مكانة المرأة وتعزيز حقوقها في العالم الإسلامي.

المنارة للاستشارات

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

الهوامش :

[1] التنبكي أحمد بابا (ت. 1036هـ/ 1627م)، *نيل الابتهاج بتطريز الديباج*، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، د.ت، ص. 258*.

ولد الثعالبي بواد يسر قرب مدينة الجزائر، ونشأ هنالك بين أحضان والديه في أسرة علم يرجع نسبها لجعفر عم رسول الله (ص). حفظ مبكرا القرآن واطّلع على كتب التاريخ والتفسير والحديث. وفي سن الخامسة عشر، هاجر مع والده بن مخلوف نحو مدينة بجاية حيث مكث سبع سنين صاحب إثرها أكبر علماء وقته. اتجه في سن الرابع والعشرين نحو تونس ثم مصر وتركيا. بعد رحلةعلمية دامت أكثر من عشرين سنة، شدّ الثعالبي الرحال لأداء مناسك الحج ليعود بعدها إلى مسقط رأسه. كُلّف قضاء الجزائر لكنه سرعان ما تخلّى عن المنصب واختار طريق الزهد والعبادة وتعليم الناس إلى غاية وفاته في 23 رمضان سنة 875هـ/ 1471م.

[2] الكتاني عبد الحي (ت. 1381هـ/ 1962م) ، *فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمسلسلات*، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1402هـ/ 1982م، ج. 2، ص. 733.

[3] السخاوي شمس الدين (ت. 902هـ/ 1496م) ، *الضوء اللامع لأهل القرن التاسع*، بيروت، دار مكتبة الحياة، ج. 2، ص. 152.

[4] الكتاني عبد الحي (ت. 1381هـ/ 1962م) ، المرجع السابق،ج. 2، ص. 131*.

[5] نور الدين عبد القادر، *صفحات في تاريخ مدينة الجزائر*، قسنطينة، البعث، 1384هـ/ 1965م، ص67.

[6] تقرير المجلس التنفيذي لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلم، ملف رقم 32. INF / 191 EX، 17 أفريل 2013، ص 2 وما بعدها.

[7] الشيرازي كامل ، "الثعالبي يظهر من جديد يحي القصبة الجزائر"، رابطة أدباء الشام، www.odabasham.net.

[8] بالفعل، لم يغفل تلاميذ الثعالبي عن الإشادة بعلم وورع أستاذهم؛ نخص بالذكر منهم تلميذه الشيخ ابن مرزوق الكفيف (ت. 901هـ/ 1495م). الذي يصف شيخه "بالإمام العلامة الصالح" (ثبت الوادي آشي، ص. 280)، وعبد الله الزواوي (ت. 884هـ/ 1479م)، الذي خصص له قصيدة في الرثاء:

قـد جزعت نفسي لفقـــد أحبتـــــي وحق لها من مثل ذلك تجـــزع [...]
أبو زيد المشهور بالعلـــــم والتقى له الفضل فينا والمقـام المرفع
هو العالم الموصوف بالنفع للورى به عنهم خطب الحوادث يدفع

[9] GRENA Yvon, *Le diadème et les perles : une fenêtre ouverte sur le Monde méditerranéen*, France, Imprimerie Sup-Exam, 1989.

المنارة للاستشارات

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

[10] من أشهر مؤلفات الثعالبي *روضة الأنوار ونزهة الأخيار* (الجزائر، المكتبة الوطنية الجزائرية، مخطوط رقم 884)؛ *المختار من الجامع في محاناة الدرر اللوامع* (الجزائر، المكتبة الوطنية الجزائرية، مخطوط رقم 3553)؛ *حقائق في التصوف* (تونس، دار الكتب الوطنية، مخطوط رقم 14-17158)؛ *رياض الأنس في علم الدقائق وسير أهل الحقائق* (الرباط، الخزانة الملكية، مخطوط رقم 2338)؛ *الأنوار في آيات ومعجزات النبي المختار* (تحقيق قاهر محمد شريف، الجزائر، دار التراث ناشرون / دار ابن حزم، 1426هـ/ 2005م)؛ *الدر الفائق* (الرباط، الخزانة الملكية، مخطوط رقم 622).

[11] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *رياض الصالحين وتحفة المتقين*، الجزائر، المكتبة الوطنية الجزائرية، مخطوط رقم 883.

[12] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *الأنوار المضيئة الجامعة بين الحقيقة والشريعة*، الرباط، الخزانة الملكية، مخطوط رقم 7125.

[13] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *العلوم الفاخرة في النظر في أحوال الآخرة*، تحقيق مالك كركوش، الجزائر، دار الكتاب العربي، 1430هـ/ 2009م.

[14] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *بالجواهر الحسان في تفسير القرآن*، تحقيق علي محمد معوض وأحمد عبد الموجود، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1418هـ/ 1997م.

[15] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *جامع الأمهات لأحكام العبادات*، الجزائر، المكتبة الوطنية الجزائرية، مخطوط رقم 583.

[16] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *الإرشاد لما فيه مصالح العباد*، تحقيق محمد القاسمي، الجزائر، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، 1427هـ/ 2007م.

[17] قسوم عبد الرزاق، المرجع السابق، ص. 49.

[18] يروي تلميذه الإمام السنوسي (ت. 895هـ/ 1491م) في هذا السياق : "كنا يوما مع سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وعليه ثوب أبيض، وعلى رأسه عمامة عريضة مسدولة على ظهره، فوقف شيخنا على مكان مرتفع، ونحن أسفل منه، فنظرت إلى ساقيه، فرأيت طرف ثوب من شعر ملاصق لجسده، فتعجبت من زهده رضي الله عنه، حيث جعل الثوب الذي هو من شعر مواليا لجسده، وجعل الثياب البيض من فوق ذلك، فمن رآه بتلك الثياب البيض لظن أنه من الحياة الدنيا، وهو في باطن الأمر على خلاف ذلك". الملالي محمد بن إبراهيم (ت897هـ/ 1493)، *المواهب القدسية في المناقب السنوسية*، مخطوط رقم 7008، الخزانة الملكية، الرباط، ورقة 17.

[19] قسوم عبد الرزاق، *المرجع السابق*، ص. 56.

[20] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *الأنوار المضيئة الجامعة بين الحقيقة والشريعة*، الرباط، الخزانة الملكية، مخطوط رقم 7125، ورقة 2.

[21] ابن مرزوق الكفيف (ت. 901هـ/ 1495م) ،

[22] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *رياض الصالحين وتحفة المتقين*، تحقيق بريك الله حبيب الجكني، دار الوعي، الجزائر، 2015.

[23] الثعالبي عبد الرحمن، *حقيقة التوحيد*، ص. 40.

المنارة للاستشارات

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

[24] الثعالبي عبد الرحمن، *الجواهر الحسان في تفسير القرآن*، المقدمة.
[25] نفس المرجع، ج. 3، ص. 172.
[26] نفس المرجع، ج. 1، ص. 265.
[27] نفس المرجع.
[28] نفس المرجع، ج. 1، ص. 342.
[29] المرجع السابق، ج. 3، ص. 228.
[30] السلمي، *طبقات الصوفية*، ص، 310.
[31] يقول القشيري في هذا الموضوع: "وكل كرامة لولي بأنها من معجزات نبيه، إذ لو لم يكن ذلك الرسول صادقا لم تظهر على من تابعه كرامة، وكلّ من ليس بصادق في الإسلام لا تظهر عليه الكرامة"، ويضيف: "والكرامات أنواع؛ فقد تكون إجابة دعاء، وظهور طعام في أوقات فاقة، أو ماء في وقت عطش، أو تسهيل قطع مسافة في مرة قريبة، أو تخليص من عدو، أو سماع خاطب من هاتف، أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقضة للعادة".
[32] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *العلوم الفاخرة في النظر في أحوال الآخرة*، المرجع السابق، ج. 1، ص. 322-323.
[33] يعزّز الشيخ الجزائري تحذيره من فتنة الكرامة بحكم كبار مشايخ التصوف كأبي مدين الغوث: "الملتفت إلى الكرامة كعابد وثن"، ولهذا قالوا: "كن طالب الاستقامة لا طالب الكرامة، فإن نفسك تتحرك وتطلب الكرامة ومولاك يطالبك بالاستقامة". قال ابن عطاء الله في الحكم: "تشوفك إلى ما ظهر فيك من العيوب خير من شوفك إلي ما حجب عنك من العيوب". قال القشيري في رسالته: "ظهور الكرامات علامة صدق من ظهرت عليه في أحواله"، وذكر عن شيخه وجوب ستر الكرامة وإخفائها، وأن الولي لا يدعيها ولا يقطع بكونها كرامة لجواز أن يكون ذلك مكرا واستدراجا".
[34] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *رياض الصالحين وتحفة المتقين*، المرجع السابق.
[35] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *الإرشاد لما فيه من مصالح العباد*، تحقيق محمد فؤاد بن الخليل القاسمي الحسني، الجزائر، دار المعرفة، 1432هـ/ 2011م، ص. 344.
[36] المرجع السابق، ص. 658.
[37] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *رياض الصالحين وتحفة المتقين*، المرجع السابق.
[38] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المرجع السابق، ج. 4، ص. 144.
[39] المرجع السابق، ج. 4، ص. 118.
[40] المرجع السابق، ج. 2، ص. 19.
[41] المرجع السابق، ج. 2، ص. 60.
[42] المرجع السابق، ج. 2، ص. 343.
[43] المرجع السابق، ج. 1، ص. 128.
[44] المرجع السابق، ج. 2، ص. 14.

المنارة للاستشارات

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

[45] دحمون عبد الرزاق، *الشيخ عبد الرحمن الثعالبي وآراؤه الاعتقادية من خلال تفسيره الجواهر الحسان في تفسير القرآن*، الجزائر، عالم المعرفة، 2011، ص. 406.

[46] *الجواهر الحسان في تفسير القرآن*، ج. 2، ص. 367.

[47] المرجع السابق، ج. 3، ص. 116.

[48] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *الجواهر الحسان في تفسير القرآن*، المرجع السابق، ج. 1، ص. 181.

[49] المرجع السابق، ج. 4، ص. 116.

[50] نفس المرجع.

[51] نفس المرجع.

[52] نفس المرجع.

[53] المرجع السابق، ج. 1، ص. 367.

[54] يقول ابن كثير في تفسير الآية: "الرجل قَيّم على المـرأة، أي هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجَّـــــت؛ الرجال أفضل مـــــن النساء، والرجل خـــير من المرأة؛ ولهذَا كانت النبوة مختصة بالرجال وكذلك المُلْك الأعظم؛ وكذا منصب القضـاء وغير ذلك". ابن الكثير أبو الفداء، *تفسير القرآن العظيم*، بيروت، دار الكتب العلمية، 2000، تفسير سورة النساء، الآية 34.

[55] المرجع السابق، ج. 1، ص. 368.

[56] المرجع السابق، ج. 1، ص. 366.

[57] نفس المرجع.

[58] المرجع السابق، ج. 1، ص. 368.

[59] المرجع السابق، ج. 4، ص. 191.

[60] المرجع السابق، ج. 1، ص. 175.

[61] المرجع السابق، ج. 1، ص. 369. الحديث أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب المماليك، حديث رقم 3143.

[62] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *رياض الصالحين وتحفة المتقين*، المرجع السابق.

[63] أنظر: الحربي دلال بنت مخلد، *إسهام المرأة في وقف الكتب في منطقة نجد*، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، 1420هـ/ 1999م.

[64] ابن الأثير أبو الحسن (ت. 1332م)، الكامل في التاريخ، تحقيق أ. تدميري، بيروت، دار الكتاب العربي، 1997م.

[65] كيري غنية، "منظور المساواة بين الجنسين في مادة العلوم الإسلامية"، *مجلة المعابر*، اللجنة الوطنية الجزائرية للتربية والثقافة والعلوم، رقم 02، أكتوبر 2014، ص. 30.

[66] عقيلة حسين، "دور المرأة المسلمة في صناعة الحضارة: مقارنة تأصيلية في ضوء إسقاطات الواقع"، *مجلة الأصالة*، http://assala-dz.net/

[67] طالبي مليكة، "الروحانيات: جوهر الحياة الزوجية"، *الكلمة للنساء: الزوجين في الإسلام*، اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم، 2014، ص. 141.

المنارة للاستشارات

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

[68] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *الجواهر الحسان في تفسير القرآن*، المرجع السابق، ج. 3، ص. 227.

[69] يقول في تفسير لقوله تعالى: **{وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد}** أن "المقصد على هذا على شرع القبلة والتزامها، وقيل أراد الأمر بإحضار النية لله في كل صلاة"، وليس وجوب الجماعة كما يقول البعض (ج. 2، ص. 12). مضيفا أن "المراد إباحة الصلاة في كل موضع من الأرض أي حيث ما كنتم فهو مسجد لكم، تلزمكم عند الصلاة إقامة وجوهكم فيه لله عز وجل سبحانه؛ ويقوي ذلك قول النبي (ص): "**صلاة الرجل في بيته أفضل من صلاته في المسجد إلا المكتوبة**" (ج. 1، ص. 219).

[70] **مسلم**، كِتَاب "الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ"، بَاب "فَضْلِ الِاجْتِمَاعِ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ"، حديث رقم 4875؛ **أبو داود**، كِتَابُ "الْوِتْرِ"، بَاب "فِي ثَوَابِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ"، حديث رقم 1246؛ **ابن ماجه**، كِتَاب "الْأَدَبِ"، بَاب "فَضْلِ الذِّكْرِ"، حديث رقم 3789.

[71] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *الجواهر الحسان في تفسير القرآن*، المرجع السابق، ج. 1، ص. 273.

[72] يقول الثعالبي في سبب نزول قوله تعالى: **{ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين}**، عن ابن عباس أنه قال: "كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ ولا والله ما رأيت مثلها قط، فكان بعض المسلمين إذا صلوا تقدموا وبعضهم يستأخر، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم، فأنزل الله الآية" (ج. 2، ص. 292).

[73] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *رياض الصالحين وتحفة المتقين*، المرجع السابق.

[74] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *الجامع الكبير*، ص. 60.

[75] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *الإرشاد لما فيه مصالح العباد*، المرجع السابق، ص. 346.

[76] ابن رشد أبو الوليد، *الضروري في السياسة، مختصر كتاب السياسة لأفلاطون*، ترجمة وتحقيق أحمد شحلان ومحمد الجابري، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1418هـ/ 1998م، ج.1، ص 387-388.

[77] يتساءل الدكتور عبد الرزاق قسوم معلقا على تناسب عنوان كتاب الثعالبي *الأنواء المضيئة الجامعة بين الشريعة والحقيقة* مع *فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال*: "فهل فعل الثعالبي هذا اقتداء بابن رشد الفيلسوف؟ لا نعتقد هذا لبعد الشقّة بين الاتجاهين، ذلك أن ابن رشد فيلسوف، يغرف من بركتين هما اليونانية والإسلامية، ويحاول بكل وسيلة المزج بينهما... أما الثعالبي فهو متصوف، متمسك بالكتاب والسنة، ولا يحيد عنهما" (المرجع السابق، ص 61).

[78] الثعالبي عبد الرحمن (ت. 875هـ/1474م)، *الجواهر الحسان في تفسير القرآن*، المرجع السابق، ج. 2، ص. 89.

[79] ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج. 2، ص. 280.

نستطيع أن نذكر أيضا مثال الولاية: فقد أنكر قول المالكية والشافعية أنه "لا يكون نكاح إلا بولي وأنها شرط في الصحة"، مرجحا قول الأحناف "أن اشتراطها سنة لا فرض" (المرجع السابق، ج. 2، ص. 8).

[80] المرجع السابق، ج. 2، ص. 462.

[81] ابن رشد، المختصر في سياسة أفلاطون، المرجع السابق، ج1، ص. 387-388.

المنارة للاستشارات